الأخطل والمـــــرأة

للأستاذ مهدي السامرائي

يستلهم كثير من الشعراء والأدباء قصائدهم وأخيلتهم من شياطين مختلفة . والمرأة من هذه الشياطين التي توحي لهم بمختلف الغرر والأفكار ، ولكن أثرها فيهم يختلف من فرد لآخر كل حسب نوع تأثره بها .

والأخطل من الشعراء الذين أثرت فيهم المرأة ، ولكن أثرها فيه كان سلبياً حتى إنه وقف منها موقفاً أقرب إلى العداء منه إلى المحاباة والتلطف . فهناك كثير من الشذرات موزعة في أنحاء ديوانه صرح الأخطل فيها بآرائه في خلق المرأة ونفس المرأة وعقل المرأة وموقف المرأة من الشباب والشيب ، ولكنها آراء لا ترضي كثيراً من النساء والمتغزلات منهن خاصة . والحق إنه كان متحاملا عليها شديداً في القسوة معها .

لم يكن يرى الأخطل في المرأة إلا أنموذجاً يلهو بها كيف شاء ومتى أراد ، فعندما تلعب برأسه بنت الحان وعندما تداعبه شياطينها وعند ما يأخذ السكر منه مأخذه ، هناك يتذكرها فيقصدها ليقضي منها وطراً من لذاذة ولعب حيث يقول :

ولقد شربت الخمر في حانوتها ... ولعبت بالقينات كل الملعب

فهو لا يرى في المرأة إلا دمية لحية يقضي معها لياليه ، وإلا وسيلة من وسائل لهوه عندما يكون ناعم البال مرتاح الفكر .

ولهوت ليلة ناعم ذي لذة ... كقرير عين أو كناعم بال

ويبدو أن المرأة أذاقت الأخطل مر الفعال وسقته كأس الأهوال فهو حتى في نومه وأحلامه لا يرى منها غير الويل والثبور إذ يقول :

طرق الكرى بالغانيات وربما ... طرق الكرى منهن بالأهوال

ولا يكتفي بهذا وحسب ، بل يصفها بالتلون والتبدل ويشبهها بجنية مروّعة تذيق الرجال طعم الأهوال .

فتغدّلت لتروعنا جنية ... والغانيات يرينك الأهوالا

فهو من أعداء المرأة القدامى حاربها بكل قوة ، وكشف عن جانب الشر في نفسها ولم يكن يؤمل منها غير الشر وغير الجنة ، وغير اللوعة والهول ، قريبة وبعيدة ، حاضرة وغائبة ، حية أو ميتة :

فلو كان مبكي ساعة لبكيتها ... ولكن شر الفانيات بديل

وكنت صحيح القلب حتى أصابني ... من اللامعات المبرقات خبول

وإني لأعجب كثيراً من نساء العصر الأموي إن سكتن عن الأخطل وهو يعلن عليهن حرباً عواناً ويهيب بالرجال أن يبتعدوا عنهن وأن يكفوا عن وصالهن إذ هن لا يبتغين لهم غير الحيلة والغواية وما هن إلا بلاء ابتلي به الرجال وغول يقض عليهم حياتهم .

وهن على أحبالهن يصدنني ... وهن بلايا للرجال وغول

«وإن امرءاً لا ينتهي عن غواية ... إذ ما اشتهتها نفسه لجهول »

هذه الحكمة التي يقدمها الأخطل لأبناء جنسه لا ترضي المرأة في أي عصر من العصور ولا في أي حال من الأحوال ، إذ لا شك أنها لعنة في الصميم من حياتها ، فلو كف الرجال عنها وانتهوا لبارت وثقلت على أهلها ولأصبحت حياتها مملة خالية من الأمل لا يمكن أن تطاق . ويكشف لنا الأخطل عن ناحية خفية من نفسية المرأة فكأنه اطلع على خفايا هذه النفس ونفذ إلى قرارها ، فعلى الرغم من بعد غور المرأة وكتمانها الشديد لدفائن قلبها لكنه استطاع أن ينفذ ببصيرته القوية إلى أعماقها وأن يستشف من وراء ظل حركة تأنيها معنى بعيداً لا يتسلل إليه إلا من عرف المرأة معرفة جيدة وإلا من ذاق منها مرارة العذاب والصد ، فقوله :

المهديات لمن هوين مسبة ... والمحسنات لمن قلين مقالا

يدل على أنه عرف أساليبها الملتوية ، تلك الأساليب التي تستعملها مع من تحب ومع من تكره ، ويدل أيضاً على أنه قد درس هذه النفسية التي لا تريد إلا أن تبطن غير ما تظهر وتظهر غير ما تبطن .

والأخطل لا يتحرج من وصف المرأة بالمكر والخديعة إذ يظهر أنها قد لعبت به كل ملعب وأذاقته من أحابيلها وحيلها ما جعله يفرّغ ثورته المكبوتة ضدها بقوله :

ما إن رأيت كركرهن إذا جرى فينا ولا كحبالهن حبالا

كما أنه لايتحرج من وصفها بالجهل ، ولكن أى جهل هذا الذى يصفها به ، إنه جهل أشد من العلم والذكاء فعلا وأقوى من المكر والثقافة تأثيراً ، إنه جهل يرمي أقوى الرجال تحت أقدامها صريعاً مجندلا بسهامها النارية مفكراً بإيماءاتها الخفية :

يمددن من هفواتهن[1] إلى الصبي سبباً يصـــدن به الفواد طوالا

ويذهب الأخطل إلى أبعـد من ذلك فى إظهار معايب المرأة الخلقية فيصفها بالمماطلة فى العهود ، وبعدم الوفاء بالوعود ، فهى مشهورة بالخلف ، معروفة بالمطل فيقول :

وإذا وعدتك نائلا أخلفتـه ووجدت عند عداتهن مطالا

وأروع من هذا المعنى فى وصفه لهذا النوع من خلف بعض النساء قوله :

إذا مطل الدين الغريم فأنهـا على كل أحيان تحـل ديونها

والأخطل لا يني عن التهجم على المرأة ونعتها بسرعة التبدل وكثرة التحول فهو يقول :

يرعين عهدك ما رأينك شاهداً وإذا مذلت يصرن عنك ميذالا

فما دمت بقربها تقدم لها فروض الحب والطاعة ، وما دمت حاضراً بين يديها تطرى جمالها وتصفها بكل ما فى قاموس الجمال من أوصاف ، فهى تحبك وهى باقية على عهدك وإلا فنصيبك النسيان إن قصرت فى ذلك أو نأيت قليلا عنها .

ويلتفت الأخطل التفاتة أخرى تدلنا على ما فى نفسه من نقمة على المرأة وحقد عليها فهو يصف غرابة تصرفها مع الرجل وشذوذ سلوكها معه ، فهى تتخاذل أمام من يظهر لها الضغينة ، وتتقاتى فى حب من يمتنع عليها ويظهر لها الجفوة ، ولعل هذا يعزى لضعفها الطبيعى من جهة ولروحها الخيالية من جهة أخرى ، فالرجل الذى لا يظهر لها ضعفاً ولا يبدو أمامها متخاذلا لا شك يشعرها بقوته وسلطته ، كما أنه إذا ما ابتعد عنها ولم يتقرب كثيراً منها ستبقى تنسج حول شخصه أخيلتها وتتصور فيـه فتى أحلامها فيزداد حبها له ويكثر تعلقها به . والأخطل يصور لنا ذلك بقوله :

إذا احتثها الركبان كان ألذها إلى ذى الصبى ذو ضغنها وحزونها[1]

أما رأى الأخطل فى عقل المرأة فرأى يكاد يغضب كل النساء ، والتعلقات منهن كما قلت خاصة ، فهو لا يرى فيها غير ضعف العقل وخطل الرأى وقلة التفكير ، فالمرأة فى نظره لا تصلح للحياة العقلية ولا تصلح لإبداء الرأى السديد ولكنها حاذقة فى تسديد السهام إلى القلوب ، ماهرة فى اللعب بالعقول عن طريق العيون :

يمرقن بالقوم حتى يختبلنهم ورأيهن ضعيف حين يختبر

وأكثر من هذا سخرية بعقل المرأة وحطاً من قيمته ذلك الكيل العجيب الجائر الذى يزن به الأخطل عقل المرأة فهو يقول :

وإذا وزنت حلومهن إلى الصبي رجح الصبي بحلومهن فمالا

***

يوضح لنا الأخطل ناحية أخرى من نواحى نفسية المرأة ، تلك هى موقفها من الشيب والشباب فيصور لنا فرار الغوانى من هؤلاء الساكين الذين بلغوا من العمر عتياً والذين استنزف كر السنين منهم ماء الحياة وسطر من الأعوام فى وجوههم تجاعيد الكوارث والأحداث فهو يقول :

يا قاتل الله وصل الغانيات إذا أيقن أنك ممن قد زها الكبر

أعرضن لما حنا قوسى موترها وابيض بعد سواد اللمة الشعر

لا يرعوين إلى داع لحاجتـه ولا لمن إلى ذى شيبة وطر

يظهر أن الأخطل كان تبع نساء ولكنه ليس موفقاً كعمر ابن أبى ربيعة ، فهو لم يقعد عن متابعتهن وعن مضايقتهن حتى فى أيام شيخوخته حتى اضطررن آخر الأمر إلى طرده بقسوة واستهزاء فهو يخبرنا عن ذلك بقوله :

يقلن لا أنت بعـل يستقاد له ولا الشباب الذى قدفات مردود

وقول الأخطل :

هل الشباب الذى قدفات مردود أم هل دواء يرد الشيب موجود

يحمل المرء على الرثاء لحال هذا الشيخ الذى يبكى صباه ويحن لأيام شبابه ويفتش عن ذلك الدواء الذى أعيا العلماء والأطباء إيجاده ، ويجد المرء نفسه أكثر من هذا عطفاً على الأخطل حينما يسمع قوله :

(١) المفوة : الجهل .

(١) المزون الشيء الخلق ويقال فى الأصل للشاة السيئة الخلق .

أعرضن من شمط في الرأس لاح به ... فهن منه إذا أبصرنه حيد
قد كن يعهدن مني مضحكاً حسناً ... ومفرقاً حسرت عنه العناقيد
فهن يشدون مني بعض معرفة ... وهن بالود لا بخل ولا جود

فقوله : « وهن بالود لا بخل ولا جود » مما يبعث في النفس الرثاء لحال ذلك المسكين الذي تقف النواني منه هذا الموقف الحيادي ، فهو من قلة الأهمية ومن التفاهة بحيث لا يثير في نفوسهن حباً ولا بغضاً كما لا يثير في قلوبهن تلك العواطف المضطربة والأحاسيس المتباينة ورجل كهذا حري بالرثاء والعطف .

ويصف لنا الأخطل منظراً لا يخلو من ظرف ودعابة مع ما فيه من مرارة ، منظر تلكم القسوة اللواتي اجتمعن يهمهمن ويهمهمن وقد علت وجوههن الكدرة وأصبن بالهم والحزن لدخول الأخطل عليهن وهو في حالة شيخوخة وتضعضع وهزال فيقول :

ورأين أني قد علتني كبرة ... فالوجه فيه تضعضع ومهوم
وطوين ثوب بشاشة أبليته ... فهن منك هواهس وهموم

وأخيراً وبعد أن يئس الأخطل من وصل المرأة ، وبعد أن عجز في هذا الميدان لا يريد إلا أن يبث الدعابة السيئة ، ويأبى إلا أن يحرض الرجال في الابتعاد والكف عنها فيقول :

قدع الغواني والتشيد بذكرها ... واصرف لذكر مكارم ومقال

ولكني متأكد أنه لم يقل ذلك إلا بعد أن عجز عن جلب ودها إليه وإلا بعد أن خابت سياسته معها .

***

حاولت أن أجد الأسباب المبررة لهذا الموقف العدائي الذي يقفه الأخطل من المرأة فلم أجد سوى خبرين قد يمكن أن نستشف من ورائهما شيئاً عن ذلك العداء ، أحدهما خبره أو قصته المشهورة مع زوجة أبيه تلك التي يقول فيها :

ألم على عنبات العجوز ... وشكوتها من غياث لمم
فظلت تنادي ألا ويلها ... وتلعن واللعن منها أمم

وقد كانت زوجة أبيه تناصبه العداء وتسيء معاملته وتؤثر أبناءها بالعطف والحب كما تؤثرهم بأطايب الطعام والشراب وتحرمه هو من كل ذلك ؛ فلا شك أن هذه القسوة في المعاملة من زوجة أبيه قد أثرت في نفسه تأثيراً بالغاً وتركت في قلبه جروحاً لم تندمل فنقم على المرأة متمثلة في زوجة أبيه فأراد أن ينتقم منها فصور لنا ما رأيناه فيها من مساوىء ومعايب .

والخبر الثاني الذي يفسر لنا ثورة الأخطل على المرأة هو ما رواه صاحب الأغاني في الجزء السابع من كتابه قال : « طلق أعرابي امرأته فتزوجها الأخطل ، وكان الأخطل قد طلق امرأته قبل ذلك ، فبينا هي معه إذ ذكرت زوجها الأول فتنفست فقال الأخطل :

كلانا على هم يبيت كأنما ... بجنبيه من مس الفراش قروح
على زوجها الماضي تنوح وإنني ... على زوجتي الأخرى كذاك أنوح

من هذا الخبر يمكننا أن نستنتج أن الأخطل لم يكن موفقاً في حياته الزوجية ، فهو لم يسعد مع زوجته الأولى ولم ينجح في حياته معها فاضطر إلى تطليقها ، كما أنه لم يستطع أن يرضي الثانية أو يجلب ودها وحبها فينسيها زوجها الأول فهي تعيش معه بجسمها ولكنها تعيش مع مطلقها بروحها وقلبها ، ولا شك أن هذا يدلنا على أن الأخطل كان فاشلا مع المرأة ، لم يحذق ذلك الفن الصعب « فن سياسة المرأة » وربما يكون هذا الفشل الواضح في حياته الزوجية مما جعله ينقم على المرأة نقمته المرة التي رأيناها في شذراته السابقة والتي لا نوافقه في أكثر آرائه فيها .

(العراق) مهدي السامرائي

مطبعة الرسالة :

تقدم قريباً

أحمد عرابي

الزعيم المفترى عليه

للأستاذ محمود الخفيف